

علم الموسيقى

فى «الدرر المتخبات المثورة» ص ٤٣٧ - ص ٤٥٤ : (علم الموسيقى، وفيه رسوم النغم وذكر أسمائها). وفى «المنهل الصافى» ج ٥ ص ١٥٠ : (علم الموسيقى، وكون العالم نقيه، ومدح هذا العلم).

قلت: وعلماء عصرنا يستعيون هذا الفن - لعدم معرفتهم به، وظنهم أن هذا الفن هو ما يقوله العامة من الغناء والطرب، وليس هو كذلك، وإنما هو علم مستقل بذاته مشتق من العروض، وفيه أراجيز ومصنفات نظم ونثر، وهو فن صعب إلى الغاية لا يصل إليه إلا من له قوة فى عصبه مع معقول جيد وذكاء وحسن صوت، ومن الأراجيز فى هذا العلم قول بعضهم:

أصلُ علمِ الضروبِ على أربعِ انقسمَ وانحَسَبَ

فأصلُهُ ومُنْتَصِلُهُ والوَلَدُ والسَّبَبُ

وأما علم النغمة فهو: بحرٌ لا قرار له.

وقيل إن ابن كُثرَ هذا كان لا يمر به صوت مما ذكره أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب «الأغانى» إلا ويحى به ويحيده، وكان فيه شمم وعفاف لم يتخذ صناعة الموسيقى استزاقاً، بل فكاهاه ويروح بها نفسه، قال القاضى شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري، وله به صحبة أعرف حقها له: كان يتردد إلى ويتودد ويتفقد، ولقد رأيت غنى فأضحك، وغنى فأبكى، وغنى فأنام، ورأيت بعينى منه ما سمعته أذنى عن «الفارابى» فصدق الخُبْرُ الخُبْرَ، وحقق العين الأثر، ورأيت منه واحداً سبحان من وهبه مالا هو فى

قدرة البشر . انتهى كلام ابن فضل الله - قال الشيخ تقي المقریزی : وأخبرني خال أُمي القاضي تاج الدين إسماعيل بن أحمد بن عبد الوهاب المخزومي الشهير بأبي الخطاب قال : أخبره الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفي عن (ابن كُر) هذا ، أنه مر بـيغلته على طائفة يغنون فحركها حتى مشت على الدف والإيقاع ، وهذا شيء لم يبلغه أحد غيره .

وفى «أزاهير الرياض المريعة» فى اللغة للبيهقى ص ١٥٩ : (الموسيقى تأليف الأُلخان ، والموسيقار : المطرب ، واللفظ يونانى) .

رسالة فى علم الموسيقى

وفى «المقامات الجلالية الصفدية» من ص ٢١٥ - ٢٢١ : الموسيقى والكلام فى أصلها ، ومن بين الصفحات أوائل ص ٢١٨ : معنى الموسيقار ، وبعده أسماء الأنغام الخ ، ثم قال المؤلف : (وصرح بالفراغة ديباج ميزاته ، فحفظت عنه ضمائر الرسالة ، وكتبت منه جواهر المقالة ، هذا وفى ضميرى أن أسأله عن علم الموسيقى ، وأصل ترتيبه فى السر والإجهار ، وأول منشأه ومن أنشأه ، ومن أين مبتداه ، وإلى أين انتهاه ، والخجل يـمـنـعـنى أن أتفوه معه بذلك ، والوجل يسلك لى فى معناه أضيق المسالك ، فظهرت له بارقة فى أسارى يروجه رجائى وفهم عنى ما أقصده من ريضاح سر معنائى - فقال : يا ثامر ألك مسألة أخرى لأوضح لك بيان ما تكسبه فى الدنيا والأخرى ؟ فقلت بمن فتق صحيح ذهنك بالحكم ، ورتق فصيح عقلك بالنعم ، إلا ما عرفتنى بالأنغام وأصلها بالإجهار والإدغام ، وما هذا النفس الجارى فى آلة الطرب للجوارح ، والقبس السارى بنور الأرب بين الجوانح ، وكيفية ما تـلـذـذ به الأسماع ، ومعنوية ما تتبذ به الطباع ، وحنين النفوس لديه ، وأنين إذهاب البوس بالميل إليه ، فقال :

يا سايلى عن حكمة العلام	فى ساير الأحكام بالإحكام
وكيف قد أهدى إلى الأنغام	بفضله جوارح الأنام
والسرُّ فيها كيف قد تدبَّرا	وصار عُرْفًا واضحًا بين الورى
اعلم بأن قد كانت الأرواح	فى الذرِّ لا تحصرها أشباح

من يوم أن قال لها ربُّ المَلَأَ
كانتُ بفضل خالق الأملآك
وهى بما دارتُ لها أَلْحَان
لو سمعوها اليوم أهلُ الأرض
وكانَ ماتوا كلهم جميعاً
فعندما انتقلت إلى الجسد
انحصرت فى باطن الكوآره
فأطلق الله لها الأسماعا
واستأنست بنغمة الأفلاك
هذا ولما خُلِقَ الجنينُ
أطلقَ منه السمع حتى سكتنا
فصار يستأنسُ بالأنغام
حتى إذا هو انتهى قام خَرَجُ
لكنه باك على النغمات
فخسَّتْ وذكُرته الدآبه
فعندها أضحى الصغيرُ ساكتاً
وإن هذا وضموه الحكما
فصار بين الناس أمراً شايعاً
فكلُّ من يعمل فى الأثقال
وساير الصنایع القوية
حتى الجمالُ فى الحمولِ الوافره
فعندها تسممُها تسيرُ
وهكذا إذا اعترى المرءَ عَرَضُ
يهذبوا أخلاقه بالطربِ
فإن رأيتَ راقصاً فى الطابقِ

أَلستُ أنى ريكم؟ قالوا: بَلَى
تأنيسُها بنغمة الأفلاك
دبرها بعلمه الرحمن
تمددوا بالطول ثم العَرَضُ
بقدره الله فكن سميعاً
فى آدم بحكمة الفرد الصمد
بعد اتساع الفلُك الدوآره
فشاهدتُ من نوره شماعا
وسكنتُ فى ضيقه الشباك
فى ظلمة الأحشاء يا ظنينُ
ما بين ماء ودمٍ قد سكتنا
فى ضيقه الوطن والمقام
إلى الوجود ما عليه من حَرَجُ
إذا قُطعتُ عنه ولم توات
بنغمة الأفلاك فى البداية
وأنه فيما اعتراه باهتا
منوعاً مُركزاً مستفهما
وحاكباً فناطقاً وسامعا
مثلُ الفتى القصارِ والعَتالِ
قد استعمأوا بالفنا سويه
تخلدو لها حُدأتها المسآفره
بقوة أوهبها الخبيرُ
فى ساير الأعضاء من نوع المرض
ويبسطوا آماله بالأرب
وهو شبه المُستهم الأبق

وساير الحداةُ ذاك النغما بحُسنٍ وضعٍ أتقنوه الحكماء
فدَعُهُ لا تعدُّو عليه ناكراً فإنه لله ربي ذاكراً
وقَصْدُهُ يخرجُ من هذا الخللُ شوقاً إلى ما كان فيه في الأزل
فاسمع بُنيَّ هذه الأرجوزه فإنها مكرومةٌ معزوزة

قال ثامر بن زمام فقلت: يا من تعلق في العلوم، وتنمق في المشور والمنظوم، اشرح لى معنى أصولها، وأوضح لى مدغم فصولها، وكيفية ترتيب البردات، ومعنوية تهذيب الأوازات، وفروع تركيب البحور والشواذات وتنكيت أركانها المرصعة، على توقيت العناصر الأربعة، وقانونها بالاختلاط للأربعة أخلاط، ومطابقتها للبروج الاثنى عشر بالتخفيف، وإن كان ضعيف، وما هو هذا اللفظ المغم والحرف المعجم الذى لم يتكمل منه كلمة لتعلم، فقام:

أما حديثُ الحرف بالإدعام وأنه حـرفٌ من الكلام
فعمدما الأرواحُ كانت في الأزل كالذرِّ في غيبٍ قديمٍ لم يزل
تأنيسها بنعمة الأفلاك كما ذكرت أولاً يا حاكى
فحين حلت في الجذيذ الفانى انحصرت فيه بلا توائى
وأوجدتُ فى ذا الوجود الزايل نادمها فى سرها مُسَايل
فقال: ما كان وكيف كنت؟ وما الذى من سره فهمت؟

قال الراوى فتحققت معنى فضيلته، وتقينت مجنى وسيلته، وقلت عرفنى بالفرق بين الموسيقى، والموسيقى، والموسيقار من تنوع فى فنان، فقال: افهم كلامى يا سايلى وتدبره، الفرق بين الثلاثة ظاهر كضوء صباح. الموسيقى هى الآلة من كل فن فى الطرب، والموسيقى هو اللاعب بها بلا استقباح، والموسيقار حاوى العلوم المطرب فافهم معانى كلامى ففيها فلاج وخذ مجانى مقالى أما الأصول فأربعة لها فروع تليها كمثلها يا صاح وأربعة تتبعها وهى فروع فروعها بعدها اثنى عشر بُرداً بغير مزاج، الرست أولها ثم العراق لجانبه والزبل فكند الثالث وطبعها الإصلاح، والأصفهان الرابع وهى الأصول

الأربعة ثم الفروع تليها كأنها مصباح، الزنكلا أولها، ثم البرزك قرابته وهوى حُسَيْنِي
عالي تطرب بها الأرواح، ماياه حلو المجنَى مع بوسليك مراسله نوى وعشاق صارت
فروع فروع ملاح.

وتمَّ وجه آخر من الأصول الأربعة ظهر نتاج فايق يزيدا إيضاح، الزنكلا والعشاق
من برادات الرست فرعا، فاسمع أخی واستعلم جواهر المرتاح، واعلم بأنَّ الماء
ويُوسَلِك تولدا من العراق الثاني بالجد لا بمزاج، وجابزوك ورهوى من زيلنكند بلا
عنا، ثمَّ النَّوى وحُسَيْنِي من أصفهان صلاح. ثمَّ الأوازات فافهم من أين معنى ظهورها
فيالها من ستة تكمل الأفرح. فكل اثنين (بردا) منها تولد لي نغم وأقف يرسم الخدمه
بناول الأقداح، فالرست لما استجمع مع العراق بنت خالته فمنهما يا عيني نيروز بغير
نكاح وزيل فكند المطرب والأصفهان مراسله فمنهما قد تولد شنهاز بن نجاح من زنكلا يا
حبيبي ومن يُرزك بلا عتنا عزيز الجماعة محرك الأشباح، والرزلكشي من رهوى ومن
حُسَيْنِي قد طلع داخل وما هو خارج وما عليه جناح وهكذا من ماياه، ويُوسَلِك بلا
تعب حجاز مصرى عراقى طرب بغير نواح، ومن نوى والمغنى عشاق زين الدسكرة
كوشت حلو المجنابدى الشذا مرواح أما الشواذات أضحت فروع فروع فروعها دوکاه
شاکاه جرکاه جميعهن صحاح، وبتجکاه الخامس مع الرمل ابن عمته عزال أضحي
مُلازم للعکبرى ملاح. فالسکرى يا معلم مع النهفت المختبر ثم المحبرزوالى کردانيا
بنجاح. فهذه الاثنا عشر منها البحور الواضحة فقس عليها تريح وسرهن مباح.

قلنا: البور تسعة من الشواذات التى ركزت بالحكمة وقالوا لا صباح للرست منها
خمسة بحور بما فيها خلل وهى الأوایل منها للمطرب النواح، وسبع نغمات تسع
للرست غير بحوره. لكنها صوت لابت يحزن الأرواح فأول البحر دُوكاه، يهبط على
الرست بعدما يطلب علو الحُسَيْنِي يطرب به المُرَنّاح، وثانى البحر ساكاه تشيل منه بلا عنا
وللعراق تعالا ساكن بغير صياح، وثالث البحر جرکاه يشيل مه وينهبط دايم على الرست
يشبه للأصفهاني صلاح، وأنه متحرك وثم فرق بينهم لأنه بالرست يعلو كما بدا المداح،
ورابع البحر ظاهر هو البنجکاه بلا تعب يشيل بخامس نغمه ولا يفض سراح وفى ذرا
الرست يهبط وبعد يتحاشا عجب وصار فى الحال يشبه نورز ابن سماح وخامس
الوشتکاه يشبه حسيني مقتصد وهو قليل المسلك وما عليه جناح، وافهم معانى شرحى
أن الأصول الأربعة قد ما زحت للعناصر كأسطر الأنواح والرست مازح بطبعه بقدرة

الفرد الصمد وحكمة موضوعة قد قوبلت بفلاح، نفس التراب كما غدا العراق ممازجاً للماء فافهم هذا والماء عذب قراح والزبل فكند تعالى إلى الهوى يستصحبه والأصفهان تمادى للنار باستفتاح، وهكذا يا مهذب قد طابقت بمزاجها الأربع أخلاط دانت لها بغير براح، فالرست هو للسودا إن كنت صاحب معرفة افهم وقس واستفهم وخذ سلاف الراح، وللعراق البلغم، والزبل فكند تدبره للدم أضحي مطابق بحكمة الفتح. وبعد ذلك للصفرا ومرها إذا النهى الأصفهان فعالج ولا تقص جناح. وثم قوم تمعنوا وطابقوا بعقولهم لكل بردا منها برج بلا مفتاح، فللحمل أولها الرست والكل هكذا لآخر الاثنى عشر بعقد لا بسفاح. والله يعفو عنا دائما وعنكم برحمة، وأسأل الله توبة بالخمسة الأشباح، وانزحموا يا جماعة على الذى قد صاغها وحكها بمحكة وزادها إيضاح، وكل واقف عليها ينظر إليها بحكمته وإن تأمل نقصه يعمل لها إصلاح، والحمد لله وحده، ثم الصلاة على النبي وآله والصحابة من فالق الإصباح.

قال الراوى: قلت فاشرح لى ما ورد فيها ومن اتخذها وأباح منها ما أباحه وما لا يُباح، فقال: اسمع فصلا فى المعنى - الأنعام فى الألحان وقد وضعت ثلاثون لحنًا من البرادات إثنا عشر، والإقرارات ستة، والشواذات إثنا عشر، وبعد الثلاثين مما عمل من التلحين فهو مسروق. ومما ذكر عن وهب بن منيه عن الألحان أن نبى الله داود عليه السلام كان يقرأ «الزبور» وهو أحد الكتب الأربعة. بسبعين لحنًا كل لحن لا يشبه الآخر، وكان يحن الطينور إليه، وتصطف على رأسه، وتتساقط فى مجلسه، وتستأنس الوحوش إليه. وتحف به الأنعام، والهوام، والجن والإنس، وتسبح معه الجبال، فلا ينفصل مجلسه إلا وقد مات من الناس خلق كثير حتى أن الرجل كان إذا خرج إلى مجلس داود يوصى أخاه أو ولده أو جاره: «إننى متوجه إلى مجلس داود، فإن أنا مت فوصيتى إلى أهل كذا وكذا، وكان أيضاً إذا قرأ «الزبور» يقف الماء الجارى، ويركد الهواء، ويعرق المحموم، ويفيق المغمى عليه، وكل هذا من حنين الأرواح، إلى ما كانت تتأسس فى الأزل من نغمات دوران الأفلاك فافهم ذلك. ويرى أيضاً. أن إبليس لعنه الله، حيث رأى اجتهاد الناس فى العبادة فى زمن داود عليه السلام وإقبالهم على الأعمال الصالحة جعل يصنع على كل لحن من مزامير داود عليه السلام جنسا من الملامى كالمزامير المختلفة للأصوات، وللأرغن، والعيذان، والمزاهر، والجنول، وغيرها من

أصناف القوانين للعب ، وهى اليرم بأيدى الناس ، وأمر أجناده من الشياطين أن تضرب بها بين الناس من السفهاء - من لا دين له - ليستميلهم عن العبادة ، ويشغلهم بالملاهى فى زمن داود عليه السلام - حتى لا يمشوا إلى مجلسه حسداً من إبليس لعنه الله ، فكل من يصغى إليها على نوع من المنكر فهو مخطئ وكل من سمعها اشتياقاً إلى ما كان عليه فى الأزل على الوجه المشروع من باب الفقر والتصوف والعبادة ، والتوحيد ، فهو مصيب ، والله أعلم . قال ثامر بن زمام فكسبت منه هذه الفائدة وكتبت عنه الفضيلة الزائدة ، وفارقتة شاكرأ وللودعيته ذاكرأ ، وودعته وداع الأحباب ، وفارقتة فراق الأصحاب .

المخطوطات الموسيقية العربية

وفى المتقطف ج ٦٧ ص ٥١٢ : (الموسيقى العربية) اطلعنا فى أعمال الجمعية الآسيوية الملكية على مقالة للمستر هنرى جورج فارمر موضوعها المخطوطات الموسيقية العربية فى دار الكتب البُدلية بجامعة أوكسفورد فاقتطفنا منها ما يلى تنويهاً بكتاب العرب كتبوا فى هذا الموضوع . قال الكاتب ما خلاصته :

إن أهم هذه المخطوطات ما يأتى :

الأول : رسالة الأربعة من القسم الأول من الرياضيات والموسيقى من «رسائل إخوان الصفا» للعارف المجريطى ، وهى أربعة عشر باباً :

- ١ - فى أصل صناعة الموسيقى للحكماء .
- ٢ - فى إدراك القوة السامعة للصوت .
- ٣ - فى امتزاج الأصوات وتنافرها .
- ٤ - فى تأثير الأمزجة بالأصوات .
- ٥ - فى أصول الألحان وقوانينها .
- ٦ - فى كيفية صناعة الآلات وإصلاحها .
- ٧ - فى أن حركات الأفلاك نغمات كنغمات العيدان .
- ٨ - فى أن إحكام الكلام صنعة من الصنائع .
- ٩ - فى تناسب الأعضاء فى الأصول الموسيقية .

١٠ - فى حقيقة نجمات الأفلاك .

١١ - فى ذكر المربعات .

١٢ - فى الانتقال من طبقات الألحان .

١٣ - فى نوادر الفلاسفة فى الموسيقى .

١٤ - فى تلون تأثيرات الأنغام .

الثانى : الكتاب الرابع فى الموسيقى من «رسائل إخوان الصفا» للعارف المجارىطى وهو كالأول .

الثالث : الفن الثامن من كتاب «الشفاء» ، وهو الموسيقى وفيه ست مقالات ، ولكل منها فصول . المقالة الأولى فى الصوت ، والثانية فى الأبعاد ، والثالثة فى الأجناس والأنواع ، والرابعة فى الجموع ، والخامسة فى الإيقاع ، والسادس فى التأليف . والنسخة مضبوطة بالشكل وبها يصلح ما فى غيرها من الخطأ .

الرابع : الفن الثالث من الجملة الثالثة من كتاب «الشفاء» فى الموسيقى وهو مثل ما قبله .

الخامس : كتاب «الموسيقى» للشيخ الرئيس أبى على ابن سينا من كتاب «النجاة» ، وهو غير منسوم إلى أبواب وفصول ، ولكنه يدور على المواضيع التالية ، وهى الأصوات ، والأبعاد ، والأجناس ، والجموع ، والإيقاع ، والانتقال ، والصنج والشاهرورد ، والطنبور ، والمزمار ودساتين اليربط ، وتأليف الألحان .

السادس : كتاب «الموسيقى» الشرقية فى النسب التأليفية» لصفى الدين عبد المؤمن البغدادى ، وهى مقسومة إلى مقالات وفصول :

(المقالة الأولى) فى الكلام على الصوت ولواحقه ، وفى شكوك واردة على ما قيل فيه . و(الثانية) فى حصر نسب الأعداد أو الأبعاد بعضها إلى بعض واستخراج الأبعاد ونسبها المستخرجة من نسب مقاديرها ومراتبها فى التلاؤم والتنافر ، وأسمائها الموضوعة لها . و(المقالة الثالثة) فى إضافات لأبعاد بعضها إلى بعض وفصل بعضها عن بعض واستخراج الأجناس من الأبعاد «الوسطى» و(الرابعة) فى ترتيب الأجناس فى طبقات

الأبعاد «العظمى» وذكر نسبها وأعدادها. و(الخامسة) فى الإيقاع وسبب أدواره والإرشاد إلى كيفية استخراج الألحان بالصناعة العملية. والكتاب مضبوط بالشكل.

الثامن: كتاب «الشرفية فى معرفة النسب التأليفية» وهو مثل ما قبله.

التاسع: كتاب «الأدوار فى الموسيقى» لصفى الدين عبد المؤمن الأرموى. وهو مقسوم إلى خمسة عشر فصلاً:

(الأول) فى تعريب الأنغام، وبيان الحدة والثقل. و(الثانى) فى أقسام الدساتين. و(الثالث) فى نسب الأبعاد. و(الرابع) فى الأسباب الموجبة للتنافر. و(الخامس) فى التأليف الملائم. و(السادس) فى الأدوار ونسبها. و(السابع) فى حكم الوترين. و(الثامن) فى العود وتسويته أوتاره واستخراج الأدوار منه. و(التاسع) فى أسماء الأدوار المشهورة. و(العاشر) فى تشارك نغم الأدوار. و(الحادى عشر) فى طبقات الأدوار. و(الثانى عشر) فى الاصطحاب الغير المعهود. و(الثالث عشر) فى أدوار الإيقاع، و(الرابع عشر) فى تأثير النغم. و(الخامس عشر) فى مباشرة العمل.

وفى هذا الكتب صورة عود وصورة آلة قائمة الزوايا تسمى: «نزهة» قيل فى «كتر التحف» إن مخترعها صفى الدين مؤلف هذا الكتاب.

وكتاب «الأدوار» هذا، بقى من أشهر الكتب عند العرب والفرس والهنود قرونًا كثيرة، وكل الكتب التى وضعت بعده تعتمد عليه.

العاشر: كتاب فى علم الموسيقى المرسوم بالأدوار، وهو مثل ما تقدمه ولكنه خال من صور الآلات الموسيقية.

الحادى عشر والثانى عشر مثل كتاب «الأدوار» المذكور آنفًا.

الثالث عشر: كتاب نستخرج منه الأنغام تأليف الشيخ شمس الدين الصيداوى الذهبى، أكثره شعر، وفيه كلام على بحور الشعر، والأوازاث ودوائر البحور.

الرابع عشر: جزء من الكتاب الذى قبله.

الخامس عشر: كتاب «كتر الطرب وغاية الأرب» وهو مثل الكتاب الثالث عشر، ولكنه غير تام، وفيه فصل زائد فى استخراج الفروع من الأصول.

السادس عشر: كتاب فى علم الموسيقى ومعرفة الأنغام، وهو رجز وشرح عليه لمحمد بن محمد بن أحمد الذهبى الجزيرى بن الصباح.

السابع عشر: كتاب «الميزان فى علم الأدوار والأوزان» لم يذكر اسم مؤلفه، وهو مبنى على كتاب «الأدوار» المذكور آنفًا، ومقسوم إلى ستة أبواب فى ماهية الموسيقى. و ماهية النغم المطلق والأوتار والمواجب ومعرفة الشدود والأوازيات وأسماء الدساتين والإيقاع. انتهى.